القومية العربية والاستعمار الإنجليزى

بقلم

عبدالمنعم خلاف

نهاية كالبداية

نكتب هذا الفصل وعقولنا وقلوبنا لا تزال فى الظلال السوداء لآخر معركة من معارك الغدر والنذالة بين القومية العربية وبين الاستعمار الإنجليزى . وهى معركة لا شك تعتبر بدء الانحسار والارتداد الحقيقى لمدّ الموجة الاستعمارية التى غمرت الشرق وقضت على الإمبراطوريات الإسلامية الثلاث الأخيرة ، وهى إمبراطورية المغول فى الهند ، والإمبراطورية الفارسية فى هضبة إيران ؛ والإمبراطورية العثمانية فى أوربا والشرق الأدنى والشمال الأفريقى . فعوقت النمو الطبيعى للحضارة فى الشرق ، وقضت على علاقات الشرف وحرمة المواثيق الدولية ونبل الفروسية وقيم الأخلاق ، ورأت بها الأقوام « المتخلفة » وجه المدنية الغربية فى إطار من الجفاف الروحى والفساد الخلقى وإشاعة الشهوة والجريمة والاغتصاب ، فنفرت منه واستعصمت بفطرتها وبساطتها .

وكما أقبلت الموجات الاستعمارية الأولى تحت ستار من التلصص والتخفى والتمويه والانقضاض الغادر على أجزاء تلك الإمبراطوريات ،

واقتطاعها وغصبها ، كذلك أقبلت الغزوة الأخيرة فى صورة مجددة من تلك القرصنة الأولى التى بدأ بها عهد الاستعمار ، وخاصة الإنجليزى . . .

وقد انهارت بالغزوة الأخيرة تلك الأكذوبة التى طالما اختلقوها ورددوها لتمويه الاستعمار وتبريره وفلسفته وإبرازه على أنه رسالة تاريخية قام بها « الرجل الأبيض » للتمدين وإنهاض الأجناس والأقوام « المتخلفة » كما يحلو لهم تسميتها .

أجل ، ظهر الاستعمار فى نهايته كما ظهر فى بدايته : قرصنة وغدراً ونذالة وخروجاً على القوانين الدولية وقيم الشرف والدين والحضارة . . فإذا (إيدن) الجنتلمان (زعموا ! !) ابن النصف الثانى من القرن العشرين ، تبدو فيه طبيعة قومه القراصنة القدامى الذين بنوا إمبراطوريتهم بالغدر والتخفى والانقضاض على أرض الأقوام المسالمين الآمنين فى القرن الخامس عشر . .

وكأنما أرادت الأقدار أن يستعرض الناس بهذه الغزوة الأخيرة كل الآلام والجرائم والشناعات التى ارتكبها المستعمرون ، فينظروها تحت مجاهر القرن العشرين ، فى معركة فاصلة اشترك فيها أعتى وأخبث قوى الاستعمار على أرض قناة السويس وما جاورها ، وهى الشريان الأكبر الذى طالما أدى خدمات للمستعمرين وجنايات على شعوب الشرق .

ولا شك أن الاستعمار يترنح الآن للسقوط بعد الضربات التى وجهها إلى نفسه وكشف بها عن وجهه القديم وحمل العالم على التعجيل بإزهاقه حتى يستقيم طريق السلام والعدالة .

استحضار روح العملاق العربي

ضع أمام عينيك أيها القارئ خريطة العالم، وسرحهما فيها بنظرة هذا الزمان وأهله، وانظر مواقع الوطن العربي الأكبر ومراكزه وغلاته ومنافعه وطبائع أجوائه، وإشرافه على الطرق العالمية البرية والبحرية والجوية واتصاله بالعالم القديم والعالم الحديث، إلى آخر ما هنالك . . . فماذا تجد؟ إنك تجد طلعة رائعة من طلعات الطبيعة! تشرف منها القارة الكبرى العجوز (آسيا) والقارة العذراء السوداء (إفريقية) والقارة البيضاء (أوربا) على ملتقى الحضارات، ومعابر التجارات، وأسواق الآراء والمعتقدات، ومعارض الألوان والألسنة والأجناس؛ تود كل الأمم أن يكون لها مواضع أشبار هناك على هذا الشارع التاريخي الأعظم (البحر الأبيض المتوسط) الذي لا بد أن تمر منه دائماً مواكب الحضارة قديمها والحديث.

إنك تجد جنساً واحداً في رقعة واحدة يأخذ بعضها بحُجَز بعض، وتؤلف سلسلة متشابهة الحلقات من الديار والديّارين الذين أنزلهم الله فيها منذ آلاف السنين: فاستقروا وأثاروها وعمروها ونقلوا من سهولها سهولة أخلاقهم مع محبيهم ومنصفيهم، ومن أوعارها وعورة أخلاقهم مع شانئيهم وظالميهم.

إنك تجد « الوجود العربي » كطائر يجثم جسمه في مصر والسودان، ويمتد جناحه الأيمن إلى هضبة إيران وجبال كردستان، ويشرف رأسه على

الأنضول وجبال طوروس، ويمتد جناحه الأيسر على الشمال الإفريقى كله وقلب القارة العذراء .

وقد هاض الاستعمار الإنجليزى مجثم الطائر وجناحه الأيمن ، وهاض الاستعمار الفرنسى جناحه الأيسر حين كان حبيساً فى شبكة الإمبراطورية العثمانية التى جمدت حركته وشلت نشاطه بعد أن أدى دوره الأول من (المدينة) ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة فى رسالة التهذيب والتحضير والتمدين . . .

عقوق

وكما أيقظ أقواماً من التتار والترك فكانت العاقبة أن قضوا على نشاطه ودوله فى المشرق إلى حد كبير ، كذلك أيقظ أقواماً من الغرب فكانت العاقبة أن أقبلوا على ديار غازين ناهبين مدمرين حاقدين إلى الحد الأكبر . .

طابع البيئة

ولأن الإنسان هو دائماً ابن البيئة والمكان ، كان العرب القدماء والمحدثون تجاراً وبحارة ووسطاء تجارة وملاحة بين الشرق والغرب ، منذ سكنوا تلك المعابر البرية والبحرية بينهما ؛ فكان العرب الجنوبيون ، أعنى سكان السواحل الجنوبية للجزيرة العربية ، وهم اليمنيون والحضارمة والعُمانيون ، وكان العرب الشماليون ، أعنى سكان السواحل الشمالية للجزيرة وما جاورها وهم السوريون والمصريون ، ينقلون تلك التجارات لأنفسهم ولغيرهم من الشعوب الشرقية

والغربية على سفن البحر وسفن البر : الإبل ، يسلكون بالأولى طرقاً عرفوها على أمواج البحار ، ويسلكون بالثانية طرقاً مهدوها على أمواج الرمال . وقد وصلوا إلى السواحل القاصية من آسيا الجنوبية وأرخبيلاتها وجزر محيطاتها ، فعرفوا مصادر ثروات الشرق ونقلوها وتاجروا فيها .

وقد حمل العرب رسالتهم فى قوافلهم وجيوشهم البرية والبحرية إلى الشرق الأقصى والغرب الأقصى ، وأسسوا دولا ومراكز إشعاعية وتجارية لثقافتهم ورسالتهم ونشاطهم الاقتصادى . وقد غيروا وجه الأرض بهداية الدين وتمدين العلم وبعملية الخلط والمزج بين حضارات الأقوام والأجناس الشرقية والغربية ، وأخرجوا للدنيا الحضارة الوسطى التى صارت مسيطرة على الناس فيما يسمى بالعهد الوسيط من التاريخ .

وقامت مراكز عمليات الخلط والمزج الحضارى فى الشرق والغرب فى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وجزيرة صقلية .

انتقال الشعلة

ومن المراكز العربية فى الغرب تلقى الأوربيون المسيحيون ثقافة العصر ونظم حضارته ، وانتفع الإسبانيون والبرتغاليون بوجه خاص بهذا كله أعظم انتفاع ؛ إذ كانت ديارهم هى المكان الذى تلاقى فيه الشرق والغرب أعظم لقاء ، وجرت عملية الخلط والمزج بجميع عناصرها . ومن أعظم تلك العناصر الملاحة ونقل التجارة بين الشرق والغرب .

فلما استرد الإسبان والبرتغاليون ديارهم من العرب حين أصابهم داء الأقوام ، وهو الفرقة والترف ، نهضوا على ضوء الشعلة الحضارية التى تسلموها من العرب ، وصاروا يبحثون عن طرق ملاحية أخرى غير الطرق القديمة التى تمر ببلاد أعدائهم العرب والمسلمين طبعاً ، ليصلوا منها إلى إلى مصادر تجارة الشرق ، فاتجه الإسبان فى سنة ١٤٩٢ إلى اقتحام المحيط الأطلسى (بحر الظلمات) الذى وقفت ملاحة العرب عند سواحله ، غير محاولات فردية قام بها بعضهم ، ولا شك أنها كانت أمام (كولومبس) حين فكر فى مغامرته للوصول إلى الهند والشرق عن طريق الاتجاه غرباً ، بناء على اقتناعه بكروية الأرض التى درس الإسبان نظريتها على أيدى جغرافيى العرب فى الأندلس وفى صقلية .

واتجه البرتغاليون سنة ١٤٩٧ بمحاولة أخرى للوصول إلى الهند والشرق كذلك عن طريق الالتفاف حول الساحل الجنوبى لأفريقية على يد الكاشف البرتغالى الأول لذلك الطريق (فاسكودى جاما) وفعلا وصلوا إلى سواحل إفريقية الشرقية وساحل ملابار بالهند سنة ١٤٩٨ .

وطبعاً كان لوصول الإسبان إلى كشف أمريكا ، ووصول البرتغال إلى كشف طريق (رأس الرجاء الصالح) الذى لا يمر ببلاد العرب والمسلمين ، ولا يخضع لسيطرتهم ، دوى هائل فى العالم ، وخاصة العالم الأوربى ، والدول الملاحية منه بوجه أخص وقد أثار سُعار التنافس والتسابق بينها على كشف المجاهل فى البحر والبر شرقاً وغرباً ، فاتجهت عماراتها

البحرية غرباً إلى العالم الجديد ، وشرقاً إلى العالم القديم ، وابتدأت القرصنة تتحول إلى عمليات مشروعة مبررة ، وغزوات مدروسة منظمة .

قرون الشيطان

وفى زحام هذا التسابق تأسست الشركات التجارية التى ولدت « الاستعمارية الحديثة » مدفوعة بعوامل وفلسفات وتعليلات اقتصادية ودينية وجنسية اتخذها « الرجل الأبيض » وسيلة لبسط سلطانه وزحفه وانتشـــاره فى أوطان غيره من الأقوام والأجناس . منبعثاً بروح النهضه التحريرية والعلمية المادية التى انتقلت شعلتها من شبه جزيرة أيبريا ، حيث أوقدها العرب ، إلى عواصم أوروبا ومراكزها الهامة ، منتفعاً أعظم انتفاع بما ابتدأ العلم المادى يمده به من أدوات ووسائل ليست عند غيره ، ملتفاً حول الإمبراطوريات الإسلامية الثلاث التى كانت آخذة فى « التقوقع » والانطواء على نفسها ، والاكتفاء بما وصلت إليه من حدود فى زمن لا يرحم من يقف عن التقدم ، غافلة عن عوامل الهدم والنخر التى أخذت تدب فيها ، وعوامل البناء والإحياء التى أخذت تدب فى الغرب ، غريمها القديم المتربص بها ، والقارع أبوابها الخلفية فى البحار الجنوبية بأذرع أخطبوطه الكثيرة الهائلة .

تناكر قديم

وبين دول الغرب ودول الاسلام تناكر قديم ، ووود مفقود ، وتعانق وجيع ! هو التعانق بالسلاح فى حروب دامت أكثر من مائتى سنة . أعنى الحروب الصليبية التى ارتد الغرب بعدها مهزوماً ، ولكنه قد تزود منها بتجارب ومعارف ومعلومات وافية عن بلاد غريمه وثرواتها وحضارتها ومثلها وإمكانياتها البشرية والمادية ، كانت هى الأشعة الأولى من فجر نهضته ، مضافة إلى ما كان يقتبسه من أشعة الشعلة العربية فى الأندلس .

فكان الاتجاه الأوربى الاستعمارى الجديد ، وإن كان فى ظاهره اتجاهاً مادياً للاستيلاء على مراكز التجارة ومواد الصناعة التى أخذت تنمو ، إلا أنه كان فى باطنه مشوباً بذكريات الحروب الصليبية ودوافعها ، وهى القضاء على العالم الإسلامى باعتباره العدو التقليدى ، وباعتباره يمثل السد القوى الحائل دون كنوز الشرق ومصادر ثرواته ، إذ كان ينيخ بجسمه العملاق على أبواب الشرق ويسيطر على معابره ، ويتغلغل سلطانه فى أعماقه حتى حدود الصين وجزر الملايو وإندونيسيا ، وتمثله ثلاث إمبراطوريات قوية ذوات جيوش وأساطيل كان لا يزال لها اسم مرهوب فى القرن السادس عشر وهو القرن الأول أو الثانى من العصر الحديث فى اعتبار المؤرخين .

وكان أسبق فرسان الاستعمار فى الشرق البرتغاليون طبعاً ثم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز . . . وهؤلاء هم موضوع حديث هذا الفصل .

عرش على القرصنة

لقد كان ملكهم (هنرى الثامن) أول من بنى لهم أسطولا ، وكان الأسطول أداة مجدهم ، ثم شجعت الملكة (أليصابات) حركات قراصنتهم ومغامريهم . فصاروا يتتبعون سفن الدول التى تقدمتهم إلى الاستعمار والاكتشاف كالبرتغال وإسبانيا وهولندا ويعتدون عليها وعلى المراكز التجارية التى تأوى إليها ، حتى أسسوا (شركة الهند الشرقية) سنة ١٦٠٠ . وفى سنة ١٦٠٧ حصلت هذه الشركة على تصريح من إمبراطور المغول المسلمين فى الهند بإقامة وكالة لها على ثغر (سورات) فى الساحل الشمالى الغربى للهند .

وما زالوا يوطدون مراكزهم التجارية فيها ، ويقضون على المراكز البرتغالية والفرنسية هناك ويحصلون على معاهدات مع المغول والإمارات الهندوكية والإسلامية ، حتى حولوا نفوذهم التجارى إلى نفوذ سياسى . ولم ينقض عام ١٧٨٤ حتى دخلت الهند فى طورها الاستعمارى السياسى والعسكرى ، بعد أن انتهت حرب الاستقلال الأميركية بهزيمة إنجلترا فضاعت منها إمبراطوريتها الأولى .

طلائع مصير العرب

وبدخول الهند فى هذا الطور تقرر مصير البلاد العربية والإسلامية التى تقع على الطريق إليها ، فصارت حركاتها السياسية والعسكرية تحت

رقابة الإنجليز الذين عرفوا قيمة الهند فى تكوين إمبراطوريتهم الثانية ، فأرادوا المحافظة عليها بتحطيم كل من يهدد أو يشوب طريقهم إليها بأذى .

ولما كانت الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الفارسية هما أكبر عامل مهدد لسيطرة الإنجليز على الهند بقوتهما وباتجاه مسلمى الهند إلى الخلافة الإسلامية فى تركيا ، وبتفكيرهم الطبيعى فى الاستعانة على الثأر من محطمى سلطانهم ، فقد أدرك الإنجليز ذلك وعملوا على تطويق بلاد الإمبراطوريتين والتسلل إليهما من ذلك الباب الخلفى الخطير وهو الخليج العربى أو الفارسى ، فى خطوات منظمة ، وحرص على استغلال الظروف وأعراض الانحلال فى هاتين الإمبراطوريتين أعظم استغلال ، وعلى إقصاء كل نفوذ أوروبى آخر عن ذلك الخليج وما حوله ، فقضوا على مراكز البرتغاليين الذين سبقوهم إليه بأكثر من قرن ، ولما اقتحمه عليهم الهولنديون بأسطولهم المتفوق وطردوهم منه فترة ، لم يلبثوا أن ضخموا أسطولهم التجارى ، وقووا أسطولهم الحربى وعادوا إليه وحملوا الهولنديين على تصفية مصالحهم فيه فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

الصراع الإنجليزى الفرنسى

ثم جاء دور الصراع الفرنسى الإنجليزى الأكبر بعد الثورة الفرنسية وقيام إمبراطورية نابليون الأول ، وهو صراع على النفوذ الأدبى والنفوذ المادى فى العالم ، وتمثيل سيادة الرجل الأبيض فى بلاد الشرق ، والسبق إلى

الاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من إمبراطورية « الرجل المريض » .

ففى مايو سنة ١٧٩٨ اتجه نابليون إلى مصر مبحراً من ثغر طولون ، بعد أن تبين له أن الإمبراطوريات الكبرى فى التاريخ لم تتحقق أو تكتمل عظمتها إلا باستيلائها على مفاتيح الشرق فى مصر والشام ، فجعل هدفه الأول الاستيلاء على مصر تمهيداً لشق قناة فى برزخ السويس لوصل البحر الأبيض بالأحمر وتمكين الأسطول الفرنسى من التحكم فيهما وطرد الإنجليز من الشرق والاستيلاء على مصالحهم التجارية والسياسية فيه .

وقد أرعب الإنجليز احتلال نابليون لمصر واتصاله ببعض أمراء الهند وأمراء جنوب الجزيرة العربية كأمير (ميسور) وأمير (مسقط) مما حمل الإنجليز على الإسراع إلى احتلال المواقع التى تتحكم فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ؛ لأخذ الطريق على نابليون إذا أراد التسلل بحراً أو براً إلى الجنوب ، فاحتلوا جزيرة (بريم) التى تتوسط تقريباً مضيق باب المندب واحتلوا الثغر اليمنى « عدن » سنة ١٧٩٩ ، ثم فرضوا بالتدريج حمايتهم على بعض المشيخات التى حولها وتسمى بالمحميات واحتلوا جزيرة (موريس) القاعدة الفرنسية الحربية على الطريق إلى جنوب إفريقية ، كما أسرعوا إلى عقد معاهدتين بالضغط والإرهاب مع أمير مسقط سنة ١٧٩٨ ، سنة ١٨٠٠ لفرض نزول قوات لهم فى مياه مسقط وموانيها على جانبى خليج هرمز ، وحولوا الوكالات التجارية التابعة لشركة الهند إلى وكالات سياسية تتبع حكومة الهند ، وأقاموا أول وكالة سياسية لهم فى بغداد سنة ١٧٩٨ .

أذرع الأخطبوط

ويرجع ظهور نفوذ الإنجليز فى العراق إلى سنة ١٧٦٣ ، حين استعان أحد ولاة الأتراك فى بغداد بسفن وكالة الشركة الإنجليزية فى البصرة لإخضاع القبائل الجنوبية التى صارت تقطع طرق التجارة بين البصرة وبغداد ، وتهزم سلطة الدولة العثمانية هناك . وقد تكررت هذه الاستعانة بالسفن الإنجليزية ، وتوثقت العلاقة بين الولاة الأتراك والإنجليز حتى لقد صار لهم رأى مسموع فى تعيين هؤلاء الولاة ، وصارت لهم مصالح وحقوق فى حماية زوار المزارات المقدسة من الهنود ، والإشراف على توزيع ريع الأوقاف المحبوسة على هذه المزارات ، وحماية التجار وشركات الملاحة الداخلية التى أسسوها لنقل التجارة والبريد فى دجلة والفرات .

وبهذا توصل الإنجليز إلى أن يكون لهم فى العراق مركز أمامى للدفاع عن نفوذهم فى الهند ، وللمراقبة والدس فى قلب الدولة العثمانية ، ولتمهيد الخطط للاستيلاء على العراق فيما بعد ، لما وجدوه من مجالات استعمارية وإمكانيات اقتصادية عظيمة فى أراضيه الخصبة الشاسعة ومواردة المائية الفياضة . فلا عجب أن يتمهدوا فيه لأنفسهم من قبل انهيار الدولة العثمانية ، وأن يتحفظوا فيما بعد لمصالحهم فيه تحفظات استثنائية فى مفاوضاتهم مع الشريف حسين بلسان عميدهم فى مصر (مكماهون) فى أوائل الحرب العالمية الأولى .

حل نصف المسألة الشرقية

شجعت حملة نابليون على مصر ، واقتحامه قلب الإمبراطورية العثمانية الإنجليز ، وجرأتهم على تجربة حظهم فى مهاجمتها من أبوابها الأمامية بعد تسللهم إليها من الباب الخلفى فى الخليج الفارسى ، وكشفت عن المطامع التى تدور فى صدور الدول الكبرى حولها . ولذلك حاولوا هم أيضاً أن يحتلوا مصر بدورهم بعد خروج الفرنسيين منها بست سنوات ، فجاء أسطولهم إلى رشيد سنة ١٨٠٧ للاستيلاء عليها والانحدار منها إلى داخل البلاد ، ولكنهم خابوا وارتدوا بفضل المقاومة المصرية الباسلة فى رشيد .

غير أن هاتين الحملتين الفرنسية والإنجليزية كانتا إيذاناً بقرب عمليات الانقضاض العام على الإمبراطورية العثمانية وتفكيكها بتحرير الأجزاء الأوروبية المسيحية من سلطانها ، وتشجيع حركاتها الاستقلالية ، وبالاستيلاء على بعض الأطراف الإسلامية النائية منها .

فى سنة ١٨٢٠ وما بعدها ربط الإنجليز إمارتى قطر والبحرين بمعاهدات تدرجوا فيها كعادتهم حتى ضيقوا على البحرين فى معاهدة سنة ١٨٦١ التى تقضى ألا تحل مشكلاتها إلا بعد عرضها على المعتمد البريطانى فى الخليج .

واستقلت اليونان سنة ١٨٢٩ واستقلت الصرب داخلياً فى نفس السنة ،

واحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ واستقلت ولايتا ملدافية وولاشية (رومانيا فيما بعد) داخلياً سنة ١٨٥٦ واستقلت الصرب استقلالاً تاماً سنة ١٨٧٨ ، واستقلت كريت سنة ١٨٩٦ ، واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ واحتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢ بعد أن شُقت قناة السويس وصار استيلاء غيرها عليها خطراً يهدد الهند .

وفرض الإنجليز على سلطان مسقط معاهدة فى سنة ١٨٩١ لا يستطيع هو وخلفاؤه بمقتضاها أن يتنازلوا عن أى جزء من أراضيها أو يؤجروه أو يرهنوه أو يسمحوا لأية دولة أخرى غير بريطانيا باحتلاله .

وفى سنة ١٨٩٢ عقدوا مع مشيخات الخليج الفارسى وإماراته كل على انفراد معاهدات التزمت فيها بأن لا تعقد معاهدة مع أية دولة أخرى غير بريطانيا وألا تأذن لوكيل أية دولة أخرى بالإقامة فى أراضيها إلا بعد رأى الحكومة البريطانية وألا تتنازل عن أى جزء من أراضيها ببيعه أو تأجيره أو هبته أو احتلاله لغير بريطانيا .

وفى سنة ١٨٩٩ عقدوا معاهدة مع الكويت كالمعاهدات السابقة مع شيوخ « ساحل القرصان » الذى سمى منذ ذلك الحين ساحل الصلح ، ثم ثبت مركزهم بالكويت نهائياً باعتراف الأتراك سنة ١٩٠١ مما جعل الوكالة السياسية التى أنشأوها فيها سنة ١٩١٤ تلعب دوراً خطيراً فى بث الدعاية لهم فى جنوب العراق وفى الاتصال بالقبائل العربية الجنوبية فى الحرب العالمية الأولى .

تم التطويق

وهكذا يتبين من الاستعراض السابق تطويق الإنجليز للبلاد العربية خاصة والإمبراطورية العثمانية عامة وتسللهم إليها من ذلك الباب الخلفي الخطير الخليج الفارسي، وعملهم الموصول على تحويل علاقاتهم التجارية الحرة هناك إلى معاهدات حماية وتحكم ومنع أية قوة أجنبية أخرى من عمل شيء يهدد مصالحهم وآمالهم الكبرى المرجوة التي رسموا للوصول إليها خططهم المحكمة حين تسنح أول فرصة .

وباستيلائهم على مصر قلب العالم العربي بالقوة والدس والخيانة والتفريق والرشوة وقعت كبرى كوارث العالم الإسلامي بالاستعمار كما قال المصلحان الثائران (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده) وتم تطويقه وانتقل مركز عمل الإنجليز الخطير إلى القاهرة ، فصارت المركز الأمامي الأكبر للنفوذ البريطاني ، وصار بيت « المعتمد السامي » فيها يعمل ويتصل ويثير ويستغل عناصر السخط بين العرب جميعاً على حركة التتريك والاضطهاد والتوجس والشك في العرب ، فسادت بين الترك والعرب حالة خطيرة .

خداع السراب

حتى إذا بدأت الحرب العالمية الأولى في أغسطس سنة ١٩١٤ كان حديث الاستطلاع أولا بين عبد الله بن الحسين واللورد كتشنر ، ثم

حديث التفاهم بين الشريف حسين والجنرال هنرى مكماهون المعتمد البريطانى فى القاهرة ١٩١٥ على مصير العرب إذا ما انحازوا إلى انجلترا وحلفائها وثاروا على الأتراك ، قد بدأ وسار فى مجراه إلى الاتفاق على إقامة مملكة عربية تضم أكثر الأجزاء العربية الآسيوية فى الإمبراطورية العثمانية .

تناقض العهود

ولما قضى الأمر وقوضت أركان ملك آل عثمان ، وابتدأت إنجلترا وحلفاؤها فى تصفية بقية (المسألة الشرقية) التى طال أمدها ، وفى توزيع تركة (الرجل المريض) بعد القضاء عليه ، ظهر للعرب أنهم قد خدعوا فى وعود إنجلترا وشرف كلمتها التى خلعوا من أجلها ولاءهم الدينى والسياسى لخليفتهم ودولته ، وأنهم قد أمنوا لذى خيانة وغدر ، وأنهم « أكلوا يوم أكل الثور الأبيض » التركى حينما أعانوا الأسد البريطانى على أكله ولم يدافعوا معه عن مصيره ومصيرهم ، وأن إنجلترا قد بلغ من غدرها أنها كانت تتفاوض مع فرنسا على مصير آخر للبلاد العربية فى اتفاق (سايكس — بيكو) سنة ١٩١٦ غير المصير المبين فى اتفاق (حسين — مكماهون) وأنها كانت تبذل الوعود للصهيونية بإنشاء وطن قومى لها فى فلسطين يقضى على الوحدة الإقليمية للقومية العربية ، ويهددها بالتمزيق واغتصاب بقية أوطانها لإسكان يهود العالم وتشريد العرب .

صليبية جديدة

وتبين للعرب كذلك أن وراء ظواهر تلك المعركة التى خدعوا واشتركوا فيها ضد دولة الخلافة الإسلامية، غزو اصليبياً جديداً ضد الإسلام وبلاده، بعد أن أذاع الجنرال (اللنبى) عند دخوله (القدس) منشورا أعلن فيه نهاية الحروب الصليبية وصرح الجنرال (غورو) قائد الاحتلال الفرنسى لسوريا وهو واضع قدمه على مقدمة قبر البطل الخالد (صلاح الدين الأيوبى) بدمشق قائلا (لقد عدنا يا صلاح الدين . . .)

ولم يكد الإنجليز والفرنسيون يشرعون فى تقسيم البلاد العربية إلى دويلات ليسهل حكمها وتخطيطها حسب مصالحهم الاستعمارية وإقامة نظم مصطنعة لإخضاعها، حتى أفاق العرب من سكرة خديعتهم وأيقنوا أنهم على أبواب دور خطير لا مفر لهم فيه من صراع دموى مع قوى الاستعمار والغدر. فهم لم يكونوا ليقبلوا أن يثوروا على بنى عثمان ليقعوا فى تلك الأحضان الشائكة القاسية للاستعمار الإنجليزى والفرنسى .

وكان شبوب الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ عاملا هاماً فى تهيئة نفوس العرب للتعجيل بالثورة على الإنجليز والفرنسيين ؛ إذ أن الثورة المصرية شبت من بنى عمومتهم الذين باوا أخلاق الإنجليز ومكايدهم وآثام استعمارهم مدة طويلة ، مما جعل العرب يدركون أن نصيبهم من الحكم

الاستعمارى لن يكون أحسن من نصيب المصريين ، وأن حكم المصريين على الاستعمار الإنجليزى ، وتمردهم عليه جدير أن يكون أمامهم ، حتى لا يطول شقاؤهم به « والعاقل من اتعظ بغيره » .

الثورة

وكان تخلى إنجلترا عن (فيصل بن الحسين) فى سورية ، وسماحها لفرنسا بمقتضى اتفاق سان ريمو فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٢٠ باحتلال سورية هو بدء الدخول فى عهد الثورات على الإنجليز والفرنسيين .

فقد خرجت بقايا جيش فيصل فى سوريا بقيادة البطل (يوسف العظمة) لملاقاة الجيش الفرنسى الزاحف بقيادة الجنرال (غورو) وظلوا يقاتلون فى موقعة (ميسلون) حتى سقط القائد العربى الخالد وأكثر رفاقه صرعى فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢١ ودخل الفرنسيون دمشق وحكموا سوريا .

وقد ألهب دخول الفرنسيين دمشق سخط العراقيين ، وقد كان يتجمع منذ انتهاء الحرب لعوامل كثيرة ، فثاروا وأعلن أئمة الدين الجهاد فى يوليو سنة ١٩٢٠ ولم تهدأ نفوسهم إلا بعد تنصيب فيصل الأول على عرش العراق ، وقد أخرجه الفرنسيون من سوريا ، وإقامة حكومة وطنية تتولى الإدارة فى العراق ، بعد أن كان الإنجليز يحكمونها حكماً مباشراً أولا ثم مقنعاً بالمستشارين .

وفى فلسطين ابتدأ عهد النضال حين أعلن حاكمها العسكرى (بولز)

عزم الحكومة الإنجليزية على قبول الانتداب على فلسطين، بما فيه من إجراءات لتنفيذ وعد (بلفور) للصهيونيين، ووقع أول اضطراب فيها بالمظاهرات الوطنية العنيفة التي انقلب إليها الاحتفال بموسم النبي موسى في القدس (٤ — ٨ أبريل سنة ١٩٢٠) إذ هجم العرب على اليهود واصطدموا بالبوليس، وقتل وجرح كثيرون من العرب واليهود.

وهكذا بدأ عهد من الثورة والاضطراب في البلاد العربية، وقد عاصر الثورات على الاستعمار في كل مكان؛ كثورة الهند وثورة أيرلندا وثورة تركيا الكمالية وثورة الريف المراكشي بقيادة البطل الكبير الأمير عبد الكريم الخطابي، والثورة المصرية، كما ذكر سابقا.

واضطر الاستعمار الإنجليزي أن يتقهقر تحت ضغط الشعوب العربية وإصرارها، وأن يغطي تقهقره بمفاوضات ومؤتمرات واتفاقات، حتى كانت معاهدته مع العراق في ١٩٣٠ ومع مصر في ١٩٣٦، وأن يضغط على فرنسا حتى يضطرها إلى الخروج من سورية ولبنان سنة ١٩٤٦ تحقيقاً لرغبة الرأي العالمي الممثل في مجلس الأمن حين رفع إليه أمر الاعتداء الفرنسي الغاشم على سورية بضرب أهالي دمشق وحمص وحماه بالنار، والفتك بالأبرياء، وتسليط نيران المدافع على دار المجلس النيابي بدمشق عام ١٩٤٥.

أجير للصهيونية

غير أن الاستعمار الإنجليزى فى فلسطين اختلف عنه فى أى مكان آخر ، وسيظل عهده فيها عار الأبد وسبة التاريخ . . . إذ كان يحكمها لا لنفسه بل للصهيونية العالمية ، فسخر قواه كلها لتهويدها والقضاء على العرب فيها والقيام بدور الستار للوكالة اليهودية ، يأتمر بأمرها وينفذ خططها فى جلب اليهود ، وامتلاك الأراضى ، وإقامة المستعمرات وتسليحها ، وتخدير العرب باللجان والوعود والمؤتمرات ، وقمع ثوراتهم الوحشية ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية فسمحوا لليهود بتكوين فرق مسلحة وجماعات عسكرية إرهابية ، حتى إذا ما اطمأنوا إلى أن اليهود يمكنهم الدفاع عن أنفسهم ويحتموا فى منظمات الأمم المتحدة ومساعدات الأمريكان ، دفعوا بالقضية إلى «الأمم المتحدة» ليغطوا انسحابهم منها ويخفوا آثار جرائمهم على العرب وعملوا هم وحلفاؤهم الأمريكان على حل العقدة بقطعها نصفين ، فصدر فى نوفمبر سنه ١٩٤٧ قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود تقسيما روعى فيه قطع الاتصال بين عرب المشرق وعرب المغرب ، وإشراف اليهود على ما يشتهون من المواقع والحدود والثغور .

وختم الإنجليز عهدهم فى فلسطين بموقف هو غاية فى اللؤم والنذالة مع العرب ؛ إذ أعلنوا أنهم سينهون انتدابهم عليها فى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨

ليمكنوا اليهود من إعلان قيام دولتهم ، وليخلوا بينهم وبين العرب العزل من السلاح ، ينقضون عليهم ويفتكون بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم كما فعلوا فى مذبحة دير ياسين التى ذبحوا فيها ٢٥٠ نسمة ، وبقروا بطونهم ومثلوا بجثثهم فى ١٠ أبريل سنة (١٩٤٨) وبقرية (ناصر الدين) التى أحرقوها وقتلوا جميع سكانها من غير أن تحرك السلطات البريطانية ساكناً لنجدة أو لإقرار أمن فى بلدة كانت لا تزال مسئولة عنها ؛ مما اضطر دول الجامعة العربية أن تسرع إلى نجدة عرب فلسطين وإقرار الأمن فى المنطقة والاشتباك مع القوات الصهيونية فى المعارك المعروفة سنة ١٩٤٨ ثم إقرار اتفاقيات الهدنة سنة ١٩٤٩ بضغط من الأمم المتحدة .

الخطر الأكبر

وبقيام إسرائيل فى قلب بلاد العرب ، وبإعلان أهداف الصهيونية فى امتلاكها جميعاً ، وباقبال موجات المهاجرين اليهود من كل مكان إليها ، وبحشد قوى الصهيونية العالمية المادية والأدبية وأنصارها من الدول الكبرى ، وبفرض القيود على تسلح العرب بالتصريح الثلاثى الصادر من أمريكا وإنجلترا وفرنسا سنة ١٩٥٠ ليضمنوا لإسرائيل تفوقها العسكرى على جميع الدول العربية . . . بكل أولئك ، ابتدأ وجه خطير لاستعمار العالم العربى وإذلاله والقضاء عليه .

رادة الحياة

ولكن العالم العربى فيه من قوة الحيوية وعناصر المقاومة والدوام والاستمرار ، وقوى الدفع والنضال ، وإرادة الحياة لنفسه وللمثل العليا التى يؤمن بها ويحمل رسالتها للإنسانية كلها ، ما يدمر كل ما يصنع جبابرة هذا الزمان بعون الله ! .

فقد انبثقت من أغوار عوامل الفناء الذى تريده إسرائيل وأنصارها للعالم العربى ثورة حياة عارمة ، قلبت موازين الحساب الاستعمارى القديم والحديث ، وجددت روح الأمل والعمل والنضال فى الشعوب والحكومات العربية ، وأثبتت أنها تستمد من رصيد ضخم من إرادة الحياة وإرادة الحرية وإرادة الشرف ! على رغم عتو قوى العدوان والفناء والغدر التى تألبت عليها فلم تزدها إلا استعلاء وكبرياء وإيماناً بأن دورها الثانى فى المعركة الأبدية بين قوى الخير وقوى الشر قد آن أوانه ؛ فعليها أن تبدأ السير من جديد فى خط سيرها التاريخى الواضح نحو رسالتها الخالدة ، صابرة مصابرة .

إباء الفناء

أجل ، لقد انبثقت الثورة المصرية العربية الكبرى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ردا من الأقدار على أوهام قوى الرجعية والوحشية والعنصرية

التى تتمثل فى الاستعمار الصهيونى الوثنى الدموى الذى حسب وحسب أنصاره أن أوان رجعته إلى بلاد العملاق العربى قد آن . . حينما خيلت الأوهام للجميع أنه غدا مشلولا لن ينهض على أرضه الفسيحة العظيمة مرة أخرى ، لطول ما مزقته قوى الاستعمار ، وخدرته سموم الصهيونية ، وحجزته قوى التعويق والتثبيط عن حياة العلم والنضال والوحدة . . .

وقد مضت الثورة المصرية بالأمة العربية كلها واثبة بها من منطقة السدود والسموم ، منطلقة بها بأقصى سرعة إلى طريق الحرية والكرامة والعزة واسترداد الحقوق المسلوبة وتصحيح الأوضاع المقلوبة ، بتحقيق جلاء الإنجليز عن مصر ، وبعقد صفقات الأسلحة التى لولاها ما وقفت إسرائيل عند حد ، ولصارت سيدة المنطقة ، ولكان حلمها الكبير فى الوطن العربى الكبير قد تحقق أو كاد . . .

وبعقد الصداقات للعرب جميعاً مع دول كبرى ترحب بها وتمثل أكثر من ثلثى العالم ، ومع الشعوب المناضلة فى كل مكان لاسترداد حريتها والقضاء على قوى الاستعمار والبغى والجشع وبإقامة ركائز ودعائم للوحدة العربية الصحيحة بالاتفاقات الثنائية والثلاثية بين الدول العربية المتحررة .

وباليقظة والتأنى على الوقوع فى الفخاخ الاستعمارية الجديدة باسم (الدفاع المشترك) و (الأحلاف) الموجهة من معسكر معين تسيطر عليه قوى عدونا الأول الآن ، وهو الصهيونية التى لا تسمح للغرب بالتمكين لقيام القومية العربية وتسليح جيوشها تسليحاً يضمن لها التفوق على إسرائيل وملء « الفراغ » فى ديارها ويضمن لها حرية القيادة والحركة العسكرية

فى ساحتها حين تقوم الحرب الثالثة التى يقيمون الأحلاف والأحزمة استعداداً لها، بل على العكس ستكون قيادة جيوشها وتحركاتها بيد القيادة الكبرى الخاضعة للصهيونية، وهذه ستعمل طبعاً على إبادة الجيوش العربية بالقذف بها فى أتون معارك « القيامة » . . . التى ستكون فى الحرب الثالثة. ليخلو المجال الحيوى لإسرائيل ويقضى على العرب القضاء الماحق . . .

سر المنطق الملتوى

ومن عجب أن تجهل أو تتجاهل هذه البديهية لدى دعاة الثقة بمعسكرات أنصار الصهيونية الذين خلقوا إسرائيل وأقحموها على قلب بلاد العرب ! فلا يعقل أن يسمحوا بتقوية العرب وتسليح جيوشهم وتركها تملأ الفراغ المزعوم فى الشرق الأوسط وتحفظ «الوجود العربى» وتمكن العملاق من النهوض وسحق إسرائيل وأحلام الصهيونية . . .

ففيم إذاً كان خلق إسرائيل وجلب اليهود لو سمح للعرب بملء الفراغ بأنفسهم وجيوشهم؟! إنه فراغ محفوظ مدخر للصهيونية لتملأه بوجودها وجنودها . .

هذه هى الحلقة المفقودة فى سلسلة منطق الغرب ، يسقطها ولا يفصح عنها عمداً واعتماداً على (طيبة) بعض العرب أو خبثهم أو خوفهم من العفريت الشيوعى المزعوم . . .

وهذا هو المعنى الذى تضيق به صدور ساسة الغرب ولا تنطلق به ألسنتهم ، خشية السيطرة الصهيونية أو خدمة للعقيدة الدينية عن بعض المذاهب المسيحية .

وهذا هو السر فى الاعوجاج العجيب الطارئ على التفكير الأميركى والسياسة الأمريكية التى كانت أمل العالم ، وخاصة العرب ، قبل دخولها فى « جحر الضب الحرب » الذى دخله من قبلها الإنجليز بضغط الصهيونية كذلك .

وإلا . . . فليخبرونا بحق الشيطان . ! ما الذى يصرف عقولهم ويلوى أعناقهم فلا يدركوا ولا يروا أن القومية العربية ذات الملايين السبعين من وحدات البشر الأقوياء الأذكياء الإنسانيين غير جديرة بأن تملأ فراغ ساحتها التى خلقها الله نفسه ، جل وعلا ، لتملأه . . ؟ !

هذا كلام له خبىء معناه ليست لنا عقول . .

ولكن ، لقد انكشف المستور وظهر المكتوم فى عملية تأميم القناة ، وفى المعركة الأخيرة ، بالاعتداء الثلاثى الذى لم يسبق له مثيل فيما لابسه من غدر ونذالة وحقد على مصر وعلى القومية العربية التى أثبتت وجودها الواقعى فى تلك المعركة . . . وبفلتات من ألسنة (إيدن وسلوين لويد وبينو ومولييه) الذين صرحوا بحربهم للقومية العربية وتحطيم ثورة مصر حرصاً على إسرائيل ومستقبلها ، وتحدياً لآمال العرب التى تجسمت فى شخص قائد زعيم شجاع جمع قلوبهم ومضى بهم وثباً وقفزاً على السدود والحواجز فى طريق عزهم وكرامتهم وسيادتهم على أرضهم ومقدرات بلادهم . . .

أجل ، لقد برح الخفاء وعرف العرب أن الاستعمار الإنجليزى خاصة ، لا يذكر لهم صداقة ولا تضحية قدموها ولا وفاء وقت الشدة ، ولا يضمر لهم إلا كل حقد يغطيه اضطراراً بنفاقه المعروف ، وأنه خاضع للصهيونية فى نظرته إليهم وحقده عليهم واحتقاره إياهم ، وأن مطامعه فى بلادهم تتجدد فى صور تختلف فى الشكل وحده .

البترول والصهيونية والإمبراطورية الثالثة

وكان المظنون أن يكون خروج الهند بقسميها من الحكم الاستعمارى الإنجليزى يستتبع طبعاً زوال سلطانهم على الطرق والمعابر التى كان قد استولى عليها لتأمين الوصول إلى الهند . . ولكن من سوء حظ العرب أنه قد نجم ناجم البترول الخطير فى ديارهم ، ونزل نازل الصهيونية فى قلبها ، وبقيت الإمبراطورية البريطانية الثالثة والأخيرة فى جوارها بإفريقيا . . . والبترول عصب الحياة الصناعية والقوة العسكرية ودم حضارة الآلات . . . والصهيونية مالكة بيوت التمويل والتصنيع والصحافة والتجارة ، مضافاً ذلك إلى سلطانها الروحى على بعض العقول والقلوب واستغلالها بعض الأساطير . . . والإمبراطورية الثالثة والأخيرة هى آخر آمال الإنجليز فى حياة الاستعمار والقرصنة ، وفقدها يعنى زوال المورد الأخير من موارد امتصاص دم الشعوب وعرقها ورزقها ، والقومية العربية هى أعظم ما يهددها ، فصارت المعركة

الآن بين الاستعمار الإنجليزى والصهيونى ، والقومية العربية تتركز فى هذه المجالات ، وتحتدم وتشتد فى صراع رهيب ؛ لعلم كل من أطراف النزاع أنها معركة حياة أو موت بالنسبة له ؛ فهو يبذل لها كل طاقاته الأدبية والمادية . . .

والمأمول من رب الحق ، وقوى الرأى العالمى ، وطلائع التقدم والسلام ، أن تحارب فى صف القومية العربية ، حتى تنتصر وتنهض بأداء رسالتها فى خدمة السلام والحضارة والتعاون الإنسانى .

obeikandl.com